معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 16/ العدد 1 (جوان 2021): ص.ص:550-567

التعتيم الدلالي ومأزق التأويل في الخطاب الشعري الصوفي
قصيدة " أسقفة من بلاد الروم" لمحي الدين بن عربي أنموذجا

Semantic ambiguity and the problem of interpretation in Sufi poetic discourse
The poem "Bishops from the Land of Rum" by Muhyiddin Ibn Arabi as a model

أ. آسية سعودي [1] *. أد. جمال مجناح [2]

[1] جامعة المسيلة، مخبر الشعرية الجزائرية، الجزائر، asya.saoudi@univ-msila.dz

[2] جامعة المسيلة، الجزائر، Djamel.medjenah@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/29؛ تاريخ القبول: 2021/06/18؛ تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص:

إن الخطاب الشعري الصوفي خطاب موجه للمتلقي وفق استراتيجية تلميحية، بألفاظ موغلة في الرمزية والغموض مما صنع هوة بين القارئ والمقاصد الصوفية، كما ساهم في خلق مسافة بين مستوى التلقي ومستوى التأويل، لذا كان حريا بالمتلقي استثمار جهده التأويلي للوصول إلى المقاصد؛ باعتبارالخطابات قد ألفت لغاية محددة فإنها دون شك تنطوي على قصدية مرسلها. والتأويل ليس عملية بسيطة بل هو تركيب بين العمليات الذهنية التي يقوم بها المؤول كالاستنتاجوالاستدلال وكذا الاعتماد على بعض المبادئ كالافتراض ومبدأ الفهم المحلي والقياس.

وفي محاولة للبحث عن جدوى تأويل الخطاب الصوفي بمعزل عن المعرفة المسبقة بتراث بعض الصوفية ورموزهم وشروحات بعضهم الآخر، جاء هذا البحث كنموذج تأويلي لإحدى قصائد محي الدين بن عربي، قصد الكشف عن جدوى إجراء سيرورات

* المؤلف المرسل.

التأويل من طرف المتلقين العاديين في خضم الصورة التعتيمية المفروضة عليهم منذ اللحظة الأولى للتلقي.

كلمات مفتاحية: تأويل أفقي؛ تأويل عمودي؛ خطاب؛ تصوف؛ رمز؛ تلقي.

Abstract:

The mystical poetic is addressed to the recipient in accordance with a strategy of discourses in strange and ambiguous terms , thus creating a distance between the reader and the mystical purposes, between the level of reception and the level of interpretation ; therefore, the recipient must invest his effort to reach the purposes that the discourses have been written to a specific goal, ni doubt contains the intention of the sender and processes of the mind by the author as conclusion and inference.

In an attempt to search for the feasibility of interpreting the sufi discourse in isolation from prior knowledge of the mystical heritage and their symbols, this research came as an interpretive model of one of poems of Muhiuddin ibn Arabi in order to reveal the feasibility of interpreting procedures by ordinary recipients in the midst of the blackout imposed on them from the first moment of receipt .

Keywords Horizontal interpretation; vertical interpretation; speech; Mysticism; symbol; receiving.

المقدمة:

إن الخطاب الشعري الصوفي خطاب متميز في عالم الإبداع الأدبي بطبيعته الرمزية، فهو موغل في الغموض ذو طابع رمزي يقول أكثر مما تقوله ظاهر كلماته وهذا ما يفرض على المتلقي قراءة تأويلية بالاستناد على انفراد معجمه اللغوي وغرابة نسقه الأسلوبي وطابعه الرمزي الذي لا ينفك يولد سيلا من الأسئلة المنفتحة على التأويل. ومن هنا يتولد المأزق الدلالي وتتزاحم أسئلة المعنى ذلك أن المقاصد ليست حاضرة دائما في الخطاب وإنما على المتلقي إجراء جملة من العمليات الذهنية واستثمار كل ما يتاح له من معطيات سياقية لأجل الوصول إلى المعنى.

وباعتبار النصوص قد ألفت لغاية محددة فإنها دون شك تنطوي على قصدية مرسلها واللغة وحدها كفيلة بالكشف عن ما يدور حوله النص، ومن كل هذا يمكن طرح الأسئلة التالية : هل يقدم الخطاب الشعري الصوفي من المؤشرات التأويلية ما يتيح له فرصة فهم المقاصد؟ وهل حقا أن القارئ بحاجة إلى الكشف عن الأسرار الصوفية لحظة التلقي،أم أن مجرد التأويل في المستوى الأفقي سيكون كافيا؟

لذا فقد حاولنا اقتراح مخطط لتأويل الخطاب الشعري الصوفي وفق نمطين مختلفين نمط تأويلي أفقي ونمط تأويلي عمودي، وتتحقق عملية التأويل بنجاح بالتوفيق بين النمطين والجمع بينهما.وما سنقوم به في بحثنا هو تطبيق نمطي التأويل السابقين على قصيدة "أسقفة من بلاد الروم" لابن عربي من ديوانه ترجمان الأشواق، ومن ثمة تسجيل النتائج المتحصل عليها لمعرفة مدى جدوى الترسيمات التأويلية وفاعليتها في تأويل الخطاب الشعري الصوفي.

1. المقاصد الصوفية ومأزق التأويل اللانهائي:

1.1 . الاستراتيجية التلميحية وسيرورات التأويل:

إن الخطاب الشعري الصوفي خطاب بني وفق استراتيجية تلميحية لو تفحصه القارئ بعين الباحث عن المقاصد في مضامين الأسطر لذهب جهده سدى، حيث ينبغي عليه إجراء سيرورات التأويل ليصل إلى المعنى والمقاصد.

فنجد ابن عربي نفسه يقر بضرورة تفسير الشعر الصوفي ذلك أنه على درجة من الغموض والرمزية لا تسمح لأي قارئ بفك شيفراته ومقابلته بالتحليل البسيط لتحقيق الفهم. حيث شرح ابن عربي قصائد ديوانه "ترجمان الأشواق" بنفسه وهو ديوان نظمه أثناء اعتماره في رجب وشعبان ورمضان في حالة تجل إلهي وصفاء روحي رقت فيه حجب النفس وذلك سنة ثمان وتسعين وخمسمائة من هجرة سيد المرسلين"[1]. ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات، والتنزلات الروحانية، والمناسبات

(1)- محيي الدين بن علي بن عربي، ديوان ترجمان الأشواق، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص: د.

العلوية جريا على طريقتنا المثلى، فإن الآخرة خير لنا من الأولى"[1]، فهو يشير إلى أنه اعتمد الإيماء بدلا لتصريح.

فكل الألفاظ الواردة في الديوان إنما هي رمز لأحد أسرار الصوفية. كما بين ابن عربي أن كل ما يقدمه من شعر غزلي أنيق ليس أكثر من كنايات ورموز: "فكل اسم أذكره في هذا الجزء عنها أكني وكل دار أندبها دارها أعني"[2]؛ لذا يجد متلقي الخطاب الشعري الصوفي نفسه في محاولة بائسة لخلق علاقة بين الدال ومدلوله، وقد أشار أمبيرتو إيكو إلى العلاقة بين العلامة ومدلولها فالإنسان "حاول منذ القدم التحكم في آلية توليد المعنى بدء من تقليد علاقة العلامة بمدلولها داخل المثلث المعروف (العلامة- الموضوع- المدلول) والذي استعاده العديد من الباحثين في اللسانيات وفلسفة اللغة من دي سسور de Saussure إلى بيرس Bearce و موريس Mouris ... مع اختلاف في طريقة تسمية الأطراف الثلاثة، إلا أن هذا المثلث لا يصلح إلا باعتباره منطلقا لحفر أعمق في مفهوم الدلالة وفي طبيعة العلاقة بين العلامة ومدلولها"[3].

كما يشير إلى فعالية القارئ وجهده التأويلي: "إن النص آلة كسولة يتم تنشيطها من طرف القارئ وتفرض عليه عملا تعاونيا من أجل ملأ فضاءات اللامقول أو المقول سلفا"[4].

ومع تعمق البحوث المعاصرة في التأويل وآلياته أصبح السؤال البحثي متعلقا بالمقصدية فتعددت بذلك مفاهيم القصد في مختلف الدراسات النظرية سواء العربية منها أو الغربية، فقد أورد الشهري مثلا أن القصد يدل على أحد أمور ثلاثة: دال على الإرادة، دال على المعنى، دال على هدف الخطاب وهي المفاهيم العامة للقصد[5].

(1)- محي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص4.

(2)- محي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص4.

(3)- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان 2005، ص14-15.

(4)- أمبرتو إيكو، مرجع نفسه، ص34.

(5)- ينظر: أمبرتو إيكو، مرجع نفسه، ص216.

فالقصد إذا يحيلنا إلى ذلك المبدأ الذي صاغه "طه عبد الرحمان" من التراث العربي الإسلامي والذي سماه: مبدأ التصديق وهو كما صاغه: "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك"[1]. فجعل هذا المبدأ مبدأ تتفرع منه عدة قواعد أهمها قاعدة القصد وهي: "لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير، ويترتب عن هذه القاعدة أمران أساسيان: أحدهما وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، والآخر إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول"[2].

ومن أجل توضيح آخر لمفهوم القصد وبناء على أحد المفاهيم السابقة له فإن هناك من الباحثين من يرى ضرورة حصول قصد المرسل في الخطاب بمفهوم الإرادة، وهناك من يذهب إلى حصر مفهوم القصد في المعنى.

إذ تنبني على المفهوم الأول عملية الفهم والإفهام، لأن الخطاب عملية تتم بين طرفين هما المرسل والمتلقي، لذلك فماهية القصد "كامنة في كونه ينبني على قصدين أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير، أما القصد الأول فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون كلاما حقا حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره، ومالم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعد متكلما حقا حتى لو صادق ما تلفظ به فهما ممن التقطه، لأن المتلفظ لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أفهم ما فُهم... وإذا تقرر أن كل منطوق به يتوقف وصفه بالكلام على أن يقترن بقصد مزدوج يتمثل في تحصيل الناطق لقصد التوجيه بمنطوقه إلى الغير ولقصد إفهامه بهذا المنطوق معنى ما، فاعرف أن المنطوق به الذي يكون كلاما هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى خطابا"[3].

يرى "عبد الهادي بن ظافر الشهري" أن هناك من يعتبر المقاصد هي المعاني نفسها أو المعاني هي المقصودة ومنها: "أن الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود

(1)- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998 ص250.

(2)- طه عبد الرحمان، مرجع نفسه، ص250.

(3)- طه عبد الرحمان، مرجع نفسه، ص214- 215.

الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو الوسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود"[1].

وعموما فإنه لإدراك معنى العبارة أو معنى الخطاب ككل، يتوجب بوجه عام الوصول إلى فحوى العبارة ذاتها من جهة، وإلى قصد المرسل من جهة أخرى. أما عملية التأويل، فتتم بشكل ناجح عندما تحصل المماثلة بين فهم المتلقي، دلالة العبارة، وقصد المتكلم.

وتتفاوت المعاني من حيث علاقة القصد بدلالة الخطاب الحرفية، بالرغم من قدرة المرسل على التعبير عن مقاصده في أي مستوى من مستويات اللغة. لكن يبدو أن معرفة اللغة بأنظمتها المعروفة وحدها لا تغني عن المرسل إليه في معرفة قصد المرسل بمعزل عن السياق، لأن مدار الأمر ينصب حول ماذا يعني المرسل بخطابه، وليس ماذا تعنيه اللغة حتى ولو كان الخطاب واضحا في لغته لأن معرفة قصد المرسل هو الفيصل في بيان معناه سواء أكان قصدا موضعيا أو إجماليا.

2.1 .ترسيمات تأويل الشعر الصوفي:

لقد خلف المتصوفة تراثا أدبيا زاخرا بكل ما هو مبهم وغامض، تتخذ فيه المقاصد سمة التعتيم في خضم غياب الروابط العقلية المولدة للدلالة، بما ينتجه شعراء الصوفية من قصائد راقية الألفاظ عمقية الدلالات، بعيدة المقاصد لا تكون معانيها دائمة الحضور، جاهزة للفهم ؛ وكل ذلك يجعله في وضع تأويلي خاص. فكل ما يثيره الخطاب الشعري الصوفي في نفس المتلقي عبارة عن بلبلة وزعزعة في مستويات الفهم والتلقي، تعني البلبلة to confuse، من الناحية المعجمية تدفق الأشياء وسيلانها معا، أي إزالة الحدود والتخوم والفروق التي تنفصل الأشياء بمقتضاها عن بعضها البعض إلى صنوف فتوجد معها اختلافات،و أن تصيبنا الحيرة أو البلبلة فهذا معناه أننا لم نعد بقادرين على معرفة إن كان هذا الشيء هو نفسه أم هو شيء آخر.

(1)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص195.

وتقع البلبلة في الخطاب الشعري الصوفي حين نجد أنفسنا عاجزين على استثمار ملكاتنا العقلية لفهمه، فالفكر الصوفي فكر يميل إلى البلبلة ويدرك بأن الحيرة أخلص سبيل إلى الحقيقة[1].

لذلك جاءت محاولتنا في اقتراح مخطط لتأويل الخطاب الشعري الصوفي وفق نمطين مختلفين نمط تأويلي أفقي ونمط تأويلي عمودي، والعملية التأويلية تكتمل بالتوفيق بين النمطين والجمع بينهما.

وما سنقوم به هو إخضاع قصيدة أسقفة من بلاد الروم لأنماط التأويل ومن ثمة تسجيل النتائج المتحصل عليها لمعرفة مدى جدوى الترسيمات السابقة وفاعليتها في تأويل الخطاب الشعري الصوفي وتتكون هذه القصيدة من ثلاثة عشر بيتا من البحر البسيط، رويها السين وهي قصيدة تزخر بحقائق التصوف، في كل شطر منها تختلج الأسرار في تشكيلة من الاستعارات ذات الدلالات العميقة والصور البديعة.

1.2.1 التأويل الأفقي:

اقترحت هذه التسمية لأن التأويل هنا يقع في ارتباط القارئ بالنص على المستوى الأفقي، فكأنما ينتقل عبر مسار أفقي أثناء القراءة دون إلقاء نظرة عمودية خارجية، حيث يستثمر القارئ كل ما هو نصي من إحالات نصية، ومؤشرات لغوية داخلية، ومعاني حرفية، دون التطلع إلى ما هو خارج النص، ويتميز بسذاجة النتائج المتحصل عليها إذ أنها بعيدة كل البعد عن المقاصد الصوفية.

إحالات نصية – سياق داخلي – دلالة معجمية

قارئ ⟵ نص

يقول ابن عربي في مطلع قصيدة أسقفة من بلاد الروم:

(1)- أيان ألموند، التصوف والتفكيك، درس مقارن بين ابن عربي ودريدا، تر: حسام نايل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011، ص85.

مَـا رَحَلُـوا يَـومَ بَـانُوا البـزَّلَ العِيسَـا إِلَّا وقَــدْ حَمَلُــوا فِيهَــا الطَّوَاوِيسَــا
مِــنْ كُــلِّ فَاتِكَــةِ الأَلْحَــاظِ مَالِكَــةٍ تَخَالُهَـا فَـوقَ عَـرشِ الـدُّرِّ بَلْقِيسَـا [1]

يبدأ المأزق الدلالي منذ اللحظة الأولى للتلقي فاستعمال الشاعر لضمير الغائب يجعل من المشكلة إحالية بالدرجة الأولى فعلام يعود الضمير هم في القصيدة؟ حيث أن الإحالة هي اعتماد عنصر معين في النص على عنصر آخر والأول يفترض الثاني، حيث أنه لا يمكننا فك شيفرته بنجاح إلا بالعودة إلى الثاني، لأن العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل؛ إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها وفهمها وتفسيرها حتى يتم اتساق النص وذلك من منطلق أنها عناصر لا تمتلك دلالة مستقلة، فشرط وجودها هو النص من جهة، ومعرفة ما تشير إليه من جهة أخرى[2]؛ كونها: "رابط دلالي إضافي لا يطابقه أي رابط بنيوي"[3].

"فالإحالة النصية هي علاقات مرجعية "داخل النص" سواء أكان بالرجوع إلى ما سبق أو بالإشارة إلى ما سوف يأتي داخل النص"[4]. ومنه تطلب من المستمع أو القارئ أن ينظر في الجملة ذاتها أو النص أي داخلهما؛ للبحث عن الشيء المحال عليه، وتأتي بصورتين:

إحالة قبلية: وهي الرجوع إلى ما سبق ذكره في النص، وهي: " الإحالة السابقة أو الخلفية التي تستخدم فيها كلمة كبديل لكلمة أو مجموعة من الكلمات السابقة لها في النص" [5]. فهي استعمال لكلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة في النص.

إحالة بعدية: وهو النوع الثاني من الإحالة داخل النص، وقد ترجم بمصطلحات مختلفة أهمها: "لاحقة"، "أمامية"، "بعدية" وهي عبارة عن : "استخدام كلمة كبديل

(1)- محي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص30.
(2)- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص16-17.
(3) - الأزهر الزناد، مرجع نفسه، ص118.
(4)- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار ضياء، القاهرة، ط1، 2001، ج1، ص40.
(5)- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، مرجع نفسه، ص38-39.

لكلمة أو مجموعة من الكلمات التي تليها في النص"[1].

حيث يتم استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقا في النص، فنجد ذلك في البيت الموالي:

إِذَا تَمَشَّـت عَلَـى صَـرحِ الزُّجَـاجِ تَـرَى ... شَمْسًـا عَلَـى فُلْـكِ فِـي حِجـرِ إِدْرِيسَـا
تُحْيِـي، إِذَا قَتَلَـتْ بِـاللَّحْظِ، مَنْطِقَهَـا ... كَأَنَّهَـا عِنْدَمَـا تُحْيِـي بِـهِ عِيسَـى
تَـورَاتُهَا لَـوْحُ سَـاقَيهَا سَـنَا، وأَنَـا ... أَتْلُـو وأَدرُسُهَـا كَـأَنِّي مُوسَـى[2]

تبقى الإحالة إلى حد الآن غامضة؛ ففعل المشي ليس مقتصرا على الطواويس فقط، فربما يقصد امرأة، ذلك أنه مهما كانت صيغة العبارة المحيلة فإن وظيفتها الإحالية تعتمد على مقصد المتكلم في مقام استعمالها الخاص. لكن في هذا النمط التأويلي يجب الوقوف عند حدود النص، تلك الطواويس قاتلة الألحاظ، تحسبها الملكة بلقيس فوق سرير الدر وعندما تتمشى وتسير فوق الزجاج، كأنك ترى شمسا تنعكس صورتها على فلك في حجر النبي إدريس. وبلقيس هذه عندما تقتل بنظراتها فإنها تبث فيها الحياة بقوة منطقها، كأنها في ذلك النبي عيسى في معجزة الإحياء.

وفي ترسيمتنا هذه يتم الاعتماد على المعنى المعجمي في التأويل لذلك يعتبر لفظ أسقفة مؤشر لغوي للتأويل وهو مؤنث أسقف ومعناه عظيم الروم، فعلى المتلقي المعرفة التامة بالأسقفة وما يرتبط بها من معاني الرفعة وعلو الشأن وأنها لا يجدر بها إلا أن تكون فعلا امرأة عظيمة وليست طاووسافهذه إحالة معنوية ساهمت في الترابط المفهومي للنص، في قول ابن عربي:

أُسـقُفَةٌ مِـن بَنـاتِ الـرّومِ عَاطِـلَةٌ ... تَـرَى عَلَيـهَا مِـنَ الأَنـوَارِ نَامُوسـا
وحْشِـيّةٌ مَـا بِهَـا أُنْـسٌ قَـدْ اتَّخَـذَتْ ... فِـي بَيـتِ خُلْوَتِهَـا لِلـذِّكْرِ نَاووسَـا
قَـدْ أَعْجَـزَتْ كُـلَّ عَـلاَّمٍ بِمَلَّتِـهَا ... ودَاوُدِيًّـا وحِبْـرًا ثُـمَّ قِسِّيسَـا [1]

(1)- ينظر: إبراهيم الفقي، مرجع سابق، ص149.
(2)- محي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص31-32.

وهنا يبدو أن هذه الأسقفة قد فاقت في تديّنها كل تديّن الأحبار والقساوسة، ومن سماتها الوحشية أي إنها تشره إلى مثلها النفوس الشريفة، وهي لا تألف إليها، وقد اتخذت من بيتها مقاما للذكر والعبادة.

إنْ أومَــأَتْ تَطلُــبُ الإنْجِيــلَ تَحْسَــبُهَا   أَقِسَّـــة أَو بَطَارِيقًـــا شَمَامِيـــــــسَا[2]

إن أشارت تطلب الإنجيل تراها في منزلة القسيسين أو البطارقة الكبار الشماميس المنيرة، وقد ورد في القصيدة ذكر للإنجيل والتوراة والزبور نسبة إلى داوديا والقرآن نسبة إلى العلام.

نَادَيـــتُ،إذْ رَحَلَـــتْ لِلْبَـــيَنِ نَاقَتَـــــهَا   يَـا حَـادِيَ العِيسِ لَا تَحْـدُو بِهَـا العِـيسَ[3]

تحيل الهاء في "بها " إلى تلك المرأة وليس الناقة ذلك أنه نادى حادي الناقة أن يوقفها عن السير وهي أثناء ذلك على ظهر ناقتها.

عَبَّيــتُ أَجْيَــادَ صَــبرِي يَــومَ بَيــنِهِم   عَلَـى الطَّرِيــقِ كَرَادِيسَـــــا كَرَادِيسَـــا
سَـــأَلْتُ إِذَا بَلَغَـــتْ نَفْســِي تَرَاقِيهَـــا   ذَاكَ الجَمَـالُ وذَاكَ اللُّطْـفُ تَنْفِيسَـا[4]

أي أنه قد أعد يوم فراقهم مجموعة من خيول صبره على الطريق وعندما بلغت نفسه تراقيها طلبت من ذلك الجمال وذلك اللطف تنفيسا.

فَأَسْــــلَمَتْ، وَوَقَانَـــا اللهُ شرَّتَـــــهَا   وَزَحْــزَحَ المَلِـكُ المَنْـــــصُورُ إِبْلِيسَـا[5]

أي أنها حين أسلمت حفظهم الله من حدتها وسطوتها، وأبعد الملك المنصور الشيطان وتغلب عليه.

نخلص إلى أن التلقي في المستوى الأفقي للتأويل يسهم في تزويد القارئ ببعض

=

(1)- محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص 33.
(2)- محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص33
(3) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص34.
(4) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص34.
(5) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص34.

ملامح التأويل الحرفي لهذه القصيدة وكذا جملة من المعطيات التي تسمح له بالدخول في دائرة أوضح من الفهم للشعر الصوفي؛ فتلك المرأة التي كانت محور القصيدة تمتلك من المميزات الروحية ما يجعل القارئ بعيدا عن تصنيفها ضمن الغزليات بل هي معان صوفية عرفانية خالصة ويتضح ذلك أكثر في ترسيمة التأويل العمودي.

2.2.1 التأويل العمودي:

يقوم القارئ من خلال هذا النمط التأويلي باستثمار كل عناصر السياق الخارج-نصي في تأويل الاستعارات والمعاني الضمنية، ويقوم أثناء ذلك بجملة من المبادئ والعمليات العقلية كالافتراض ومبدأ الفهم المحلي، والقياس والاستدلال والاستنتاج .

إن الانتقال من التأويل الأفقي إلى التأويل العمودي يتطلب امتلاك القارئ لرصيد معرفي صوفي وفير وإلا فإن تأويله للخطاب الشعري الصوفي يظل عقيما، بعيدا عن الأسرار والمعاني الصوفية الخالصة. لذلك يجب عليه النظر إلى الدلالة في الشعر الصوفي باعتبارها ذرة ذات ثلاثة جزيئات: (دلالة معجمية، دلالة استعارية، دلالة صوفية)

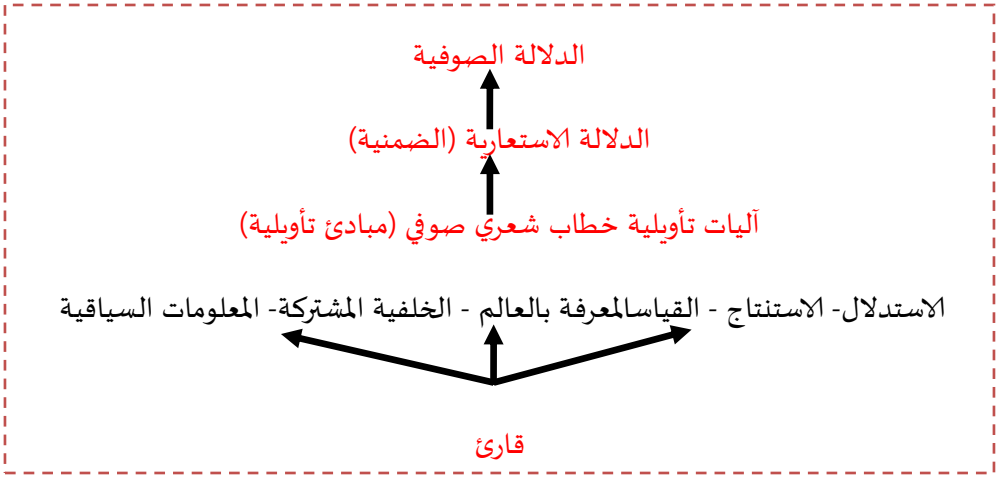

2 : مبادئ وآليات تأويل المعاني الضمنية:

1.2 المعارف المسبقة:

إن أي خطاب يتم التلفظ به يجعل المتلقي يبحث في سجله المعرفي وخبرات لاوعيه

عن خطابات سابقة مشابهة ليتم التعامل معها بنفس الآليات والتجارب اللغوية، ذلك أن"المبدأ الأساس أن لأي خطاب رصيد من الافتراضات المسبقة يضم معلومات مستمدة من المعرفة العامة، وسياق الحال والجزء المكتمل من الخطاب ذاته"[1].

مَـا رَحَلُـوا يَـومَ بَـانُوا البـزَّلَ العِيسَـا إِلَّا وقَـــــدْ حَمَلُـوا فِيهَـا الطَّوَاوِيسَـا

مِـنْ كُـلِّ فَاتِكَـةِ الأَلْحَـــاظِ مَالِكَـةٍ تَخَالُهَـا فَـوقَ عَـرشِ الـدُّرِّ بَلْقِيسَـا[2]

يفترض المتلقي أن تلك الجماعة ترتحل في قافلة على الإبل التي تحمل الهوادج، وبناء على معرفته المسبقة بالعالم استنادا على المؤشر اللغوي "العيس" الذي يعني الإبل الأبيض الذي يخالط بياضها شيء من الشقرة.

وما يفترضه المتلقي مبدئيا أن صورة حمل الإبل الطواويس تحتمل معنى استعاريا ضمنيا نابع من افتراضاته ومعرفته بالعالم متمثل في صورة الطاووس الدالة على الحسن ولكن السؤال الذي قد يطرأ على ذهن المتلقي: هل الطواويس كانت تعيش في الصحاري إلى جانب الإبل؟ وهذا ما يجعل القصد فيها يحتمل معنى الفتاة الحسنة الجميلة، أو كناية عن الأحبة ومعنى صوفيا في تركيب رمزي للحكمة الإلهية التي تفتك بالصوفي متى تجلت له. وهذه المقاصد بعيدة كل البعد عن القارئ ولم ترد إلا في شرح ابن عربي نفسه لديوانه ترجمان الأشواق؛ لكن مهما كانت الأسرار الصوفية غائرة في الألفاظ إلا أن القارئ يفترض مسبقا أنها تقول أكثر مما هو ظاهر. فيكفي أن يطلع المتلقي على بعض رموز الصوفية واصطلاحاتهم ليتم له فهم المقاصد، حيث ينبغي عليه امتلاك معارف مسبقة يستثمرها القارئ بشكل خاص في التأويل، وهي تعد بمثابة عناصر تأويلية خارج نصية.

إِذَا تَمَشَّـت عَلَـى صَـرحِ الزُّجَـاجِ تَـرَى شَمْسًـا عَلَـى فُلْـكٍ فِي حِجـرِ إِدْرِيسَـا

تُحْيِـي، إِذَا قَتَلَـتْ بِـاللَّحْظِ، مَنْطِقَهَـا كَأَنَّهَـا عِنْدَمَـــــا تُحْيِـي بِـهِ عِيسَـى

(1) - ينظر: براون ويول، مرجع سابق، ص96.

(2)- محي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص30.

تَـــــورَاتُهَا لَـوْحُ سَــاقَيهَا سَـنَا، وأَنَـــا أَتْلُـــو وأَدرُسُهَـــــا كَـــأَنِّي مُوســَى[1]

كما يستثمر المتلقي معرفته بالعالم للتمكن من التعرف على ما تحيل عليه أسماء "بلقيس" "إدريس" "عيسى" "موسى" ثم عن طريق الاستدلال يقوم القارئ بتحديد بلقيس المتحدث عنها بأنها هي ملكة سبأ وقصتها المشهورة المذكورة في القرآن الكريم دون غيرها عن طريق عبارة : صرح الزجاج. وإحالة إدريس، عيسى وموسى على أنبياء الله.

وتبدو تلك المرأة ذات قوى خارقة فتقتل بنظراتها وتحيي بمنطقها كما يحيي النبي عيسى الموتى، فيستنتج أن صورة الإعجاز هو وجه الشبه بينهما فينتقل بذلك إلى الدلالة الصوفية : البزل ويريد بها الأعمال الباطنة والظاهرة فإنها التي ترفع الكلم الطيب إلى المستوى الأعلى، والطواويس المحمولة فيها أرواحها، فالعمل لا يكون مقبولا ولا صالحا ولا حسنا حتى يكون له روح مزينة عاملة وكنى عنها بالطواويس لحسنها وجمالها[2].

"إذا رأيتها حسبتها فوق سرير الدر" يشير إلى ما تجلى لجبريل والنبي عليهما الصلاةوالسلام، في بعض إسراءاته في رفرف الدر والياقوت عند سماء الدنيا، وسماها بلقيسا لتولدها بين العلم والعمل كما كانت بلقيس متولدة بين الجن والإنس[3].

وقد ذكر صرح الزجاج لما شبهها ببلقيس وكنى بإدريس عن مقام الرفعة والعلو وذكر فعل التمشي والسير ببطء دون السعي وغيره لنخوتها وعجبها وانتقالها من حالات هذا القلب من حال إلى حال بضرب من التمكن، وفي ذكر القتل نبه على مقام الفناء وكنى بالإحياء عن النطق لتمام التسوية لنفخ الروح ووقع التشبيه بعيسى عليه السلام[4].

توراتها لوح ساقيها: ذكر الساق لما كنى عن بلقيس والصرح، وكانت قد كشفت عن ساقيها أي بينت أمرها ومنه قوله تعالى:" يوم يكشف عن ساق" (سورة القلم:42) الأمر

(1)- محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص31-32.

(2) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص30.

(3) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص31.

(4) - محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص31.

الذي يقوم عليه بيان الآخرة[1].

يبدو جليا أن ابن عربي يحمل الألفاظ أكثر مما تحتمله من معاني، وهو ما يرمي إليه المتصوفة من ستر لأسرارهم عن عامة الناس، لذا فكل تأويل يقوم به القارئ العادي للشعر الصوفي على المستوى التأويلي التكاملي يبقى ناقصا دون إضافة الدلالات الصوفية التي تتحد بمقاصد المخاطب، فالاستناد الجزئي على مقاصد الخطاب الصوفي لن يثمر لنا مقاصد صوفية ما لم يكشف عنها تصريحا.

أُسقُفَةٌ مِن بَنَاتِ الرّومِ عَاطِلَةٌ تَرَى عَلَيهَا مِنَ الأَنوَارِ نَامُوسَا[2]

إضافة إلى توظيف القارئ جملة من معارفه المسبقة عن العالم، سعيا إلى الفهم فهو يقوم ببعض العمليات العقلية دون شك في سيروراته التأويلية كالاستنتاج والقياس والاستدلال، فقوله عن تلك الأسقفة أنها عاطلة تجعل التأويل لانهائيا وكل عمليات التأويل دون جدوى، لكنه ربما يستنتج عن ذلك مما يقوم به الأسقف ربما هو عاطل عن كل الأعمال الدنيوية، تبدو عليها الأنوار من شدة الإيمان والتدين قياسا على بعض المعطيات الدينية السابقة، و هو ما يتناسب مع المقاصد الصوفية إلى حد ما.

وكمقصد صوفي خالص يقول ابن عربي: بما أن الحكمة عيسوية فقد نسبها للروم،وقوله عاطلة: خالية من الحلي، أي هي من عين التوحيد وليس لها زينة الأسماء الإلهية، والناموس هو الخير[3].

وحْشِيّةٌ مَا بِهَا أُنْسٌ قَدْ اتَّخَذَتْ فِي بَيتِ خُلْوَتِهَا لِلذِّكْرِ نَاووسَا[4]

إن الوحشية صفة تجعلنا نتخيل الشخص المتصف بها منعزلا بعيدا عن الناس، وتلك الأسقفة وحشية متناسبة مع تعطلها عن أي عمل سوى الذكر في مقامات خلوتها

(1) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص32.

(2)- محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص33.

(3) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص32.

(4)- محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص33.

وعزلتها وكنى عنه بالقبر فكأنها تركت الدنيا لتنظر في أمور الموت والآخرة.

ويشير ابن عربي إلى ذلك بقوله: لما كان هذا القلب الذي وسع هذه الحكمة الذاتية العيسوية في مقام التجريد والتنزيه كان كالفلاة وكانت هي فيه كالوحش فلهذا أيضا قال وحشية. وذكر الناووس وهو قبر من رخام كانت ملوك الروم تدفن فيه، وذكره حتى يذكرها بالموت الذي هو فراق الشمل فتزيد بذلك زهدا وتعلقا بالوحدة وبعدا عن الألفة[1].

قَـدْ أَعْجَـزَتْ كُـلَّ عَـلاَّمٍ بِمَلَّتِـــــــهَا وداوُدِيًّـــا وحِبْـــرًا ثُـــمَّ قِسِّيـــــسَا [2]

إنْ أَومَـــأَت تَطْلُـــبُ الإنْجِيـــلِ تَحْسَـــبُهَا أَقِسَّـــةً أَوْ بَطَارِيقَـــا شَمَامِيـــــــــسَا[3]

2.2 مبدأ الفهم المحلي:

إن مبدأ الفهم المحلي يمكننا من معرفة أن الشخص المتحدث عنه هنا هو المرأة ذاتها وهو مبدأ يطلب من المتلقي/لقارئ أن يقلل من عمليات التحليل قدر الإمكان وأن يقتصر على تكوين تصور على درجة كافية من التخصيص، يسمح له بفهم يتناسب مع ما يرى المتلقي أنه غرض القول، ومعرفته بالعالم هي التي تحدد فهمه المحلي.

كذلك فإن تجربة الإنسان مع أحداث سابقة مشابهة تزوده بتوقعات وافتراضات عن خصائص السياق الذي يحتمل أن تكون مناسبة[4]. تلك الأسقفة أعجزت العلماء بتدينها، وشبهها برجال الدين من قساوسة وبطاريق مستنيرين حين تطلب الإنجيل لقراءته. فالكتب الأربعة لا تدل إلا على الأسماء الإلهية خاصة لها لم يقاومها ما تحمله هذه الكتب من العلوم، وكنى عنها بحاملها، وهذه الروحانية إشارة إلى كونها عيسوية إلى الإنجيل بطريق التأييد له[5].

(1) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص4.

(2)- محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص33.

(3) - محيي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص33.

(4)- ينظر: براون ويول، مرجع سابق، ص73.

(5) - محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص35.

نَادَيــتُ،إِذْ رَحَلَــتْ لِلْبَــينِ نَاقَتَــهَا يَـا حَـادِيَ العِـيسَ لَا تَحْـدُو بِهَـا العِـيسَ
عَبَّيــتُ أَجْيَــادَ صَــبرِي يَــومَ بَيــنِهِم عَلَى الطَّرِيـقِ كَرَادِيسَــا كَرَادِيسَــا[1]

وتبدو الصورة مركبة إلى حد ما يحتاج القارئ إلى جهده التأويلي واستثمار العمليات العقلية ليمسك ببعض الفهم الذي لا ينفك يبدو وهمي الوجود حيث جعل للصبر أجياد متجمعة على طريق الفراق وهو لفظ يتناسب مع السياق، ويبدو أن هذه الأجياد حتما أسرع من الإبل مما يدل على رغبته في اللحاق بها.

هذه الروحانية الذاتية لما أرادت الرحيل عن هذا القلب الشريف لرجوعه من مقام لي في وقت لا يسعني فيه غير ربي إلى النظر في مصالح ما كلف به وكنى عنها بالناقة والملائكة المقربون هم حداة هذه الهمم، فأخذ يخاطب روحانيا بكناية الحادي أن لا يسيروا بها لما لها من التعشق والتعلق والإنسانية، حيث تمنى استدامة هذه الحالة[2].

سَــأَلْتُ إِذَا بَلَغَــتْ نَفْســي تَرَاقِيَهَــا ذَاكَ الجَمَــالُ وذَاكَ اللُّطْــفُ تَنْفِيسَــا
فَأَسْــلَمَتْ، وَوَقَانَــا اللهُ شرَّتَــهَا وَزَحْــزَحَ المَلِــكُ المَنْــصُورُ إِبْلِيسَــا[3]

يجدر بالقارئ التساؤل ما هو التراقي الذي وصلت إليه نفسه؟، إنه مؤشر لفظي وارد في القرآن الكريم بمعنى انتزاع الروح من الجسد، وهذا ما جعله يقف على عتبات البوح سائلا بعض التنفيس، والعودة إلى الحياة، يريد ما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن نفس الرحمان يأتيني من قبل اليمن". ثم أسلمت أي أجابت وانقادت ووقاه الله شرتها أي حدتها وغضبها، وانتصر الحق على الباطل ممثلا بانتصار الملك المنصور على إبليس، وإذ لابد من رحيلها فلا يزال عالم الأنفاس من جهتها يأتيه مع الأحوال وهو أيضا ما تشير إليه العرب في أشعارها بإهدائها التحية والأخبار مع الرياح إذا هبت، فكنى عن هذا المقام هنا بالأنفاس.

(1) - محي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص36.
(2) - محي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص36.
(3) - محي بن علي بن عربي، مرجع نفسه، ص34.

فأجابت وانقادت إلى سؤالي و وقانا الله سطوتها، والملك يريد به خاطر العلم والهداية وإبليس يريد به خاطر الاتحاد[1].

خاتمة:

لقد كشف لنا هذا البحث بعض ما كان غائبا عنا كما أتاح لنا فرصة إيجاد إجابات محددة لتساؤلاتنا حيث سجلنا نتائج هامة تتلخص فيما يلي :

- المتلقي العادي الذي لا تربطه صلة معرفية بالتصوف لا يمكنه فك شفرات الخطاب الشعري الصوفي وكل محاولة لكشف المقاصد الصوفية ستكون عقيمة.

- يمكن للمتلقي المطلع على بعض تراث الصوفية أن يستثمر تلك المعطيات في عملية التأويل باعتبارها رصيدا معرفيا سياقيا نابع من معرفته بالعالم.

- إن الخطاب الشعري الصوفي لا يقدم للقارئ العادي القدر الكافي من المؤشرات التأويلية.

- إن التأويل ليس عملية بسيطة بل هو تركيب بين العمليات الذهنية التي يقوم بها القارئ كالاستنتاج والاستدلال وكذا الاعتماد على بعض المبادئ كالافتراض ومبدأ الفهم المحلي والقياس.

- الخطاب الشعري الصوفي موجه للقارئ وفق استراتيجية تلميحية لذا ينبغي عليه استثمار جهده التأويلي للوصول إلى المقاصد.

- كل لفظ في القصيدة يمثل رمزا لأحد أسرار الصوفية التي لا يعلمها إلا الخاصة، لذلك يمكن للقارئ الاكتفاء بتأويلها على المستوى الأفقي للتأويل.

- يسبب الخطاب الشعري الصوفي نوعا من البلبلة الفكرية فيكون القارئ بذلك عاجزا عن استثمار ملكاته العقلية للوصول إلى المقاصد الصوفية.

- يرتبط القارئ بالنص على مستوى التأويل الأفقي عندما ينتقل عبر مسار أفقي أثناء القراءة دون إلقاء نظرة عمودية خارجية، حيث يستثمر كل ما هو نصي من إحالات نصية، ومؤشرات لغوية داخلية، ومعاني حرفية دون التطلع إلى ما هو خارج نصي.

(1) - محيي بن علي بن عربي، مرجع سابق، ص34.

- يستثمر القارئ كل عناصر السياق الخارج نصي في التأويل العمودي، لاسيما ما تعلق بتأويل الاستعارات والمعاني الضمنية.

- التكامل بين المستويين التأويليين الأفقي والعمودي يتطلب امتلاك القارئ لرصيد معرفي صوفي، ذلك أن الدلالة الصوفية تقع في نهاية التأويل العمودي ؛ولا يتم الوصول إليها إلا عن طريق الربط بين مختلف المعطيات النصية والمعلومات السياقية المتعلقة بالتراث الصوفي.

المراجع

1- محي الدين بن علي بن عربي، ديوان ترجمان الأشواق، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 2005.

2- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان 2005.

3- أيان ألموند، التصوف والتفكيك، درس مقارن بين ابن عربي ودريدا، تر: حسام نايل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1-2011.

4- ج،ب براون، جيول، تحليل الخطاب،تر: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، 1997.

5- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، ط1، 2004.

6- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق،دار ضياء، القاهرة، ط1، 2001، ج1.

7- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998.

8- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.